المجلة الليبية للدراسات الأكاديمية المعاصرة (Libyan Journal of Contemporary Academic Studies)
LJCAS, eISSN: 5970-3005
Volume 3, Issue 2 (Part II), 2025, Pages: 742-755

Characteristics of historical writing by Cheikh Abdelaziz Thaalbi

Dr. Moussa Ghefiri *
Department of History, Faculty of Humanities and Social Sciences, University of Tunis, Tunisia
*Corresponding author: moussa.ghefiri@yahoo.fr

خصائص الكتابة التاريخية عند الشيخ عبد العزيز الثعالبي

د. موسى غفيري *
قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، تونس

Received: 28-09-2025; **Accepted:** 03-12-2025; **Published:** 13-12-2025

Abstract:
If Abdelaziz Thaalbi is known as a political and thinker in a religious science, he also had contribution to the Tunisian and Maghreb history. We try to deg into this aspect in order to precise the aspect of his historical writing as a known national figure conservative and illuminate. Our intention is to see the implication of the political, culturel and scientific context of the 1st half of the 20 century. In other words, seeing the similarity and divergence between his method of writing and the method of his contemporaries.

Keywords: Cheikh Abdelaziz Thaalbi, History, Tunisia, Maghreb, arab and Islamic history.

الملخص :
لئن عُرف الشيخ عبد العزيز الثعالبي بكونه رجلا سياسيا ومفكرا في العلوم الدينية إلا أن له أيضا إسهامات في التأريخ لتونس ولدول المغرب العربي. وقد حاولنا البحث في هذا الجانب رغبة منّا في رصد خصائص الكتابة التاريخية لدى هذه الشخصية الوطنية البارزة التي تصنف ضمن المحافظين المتنورين. ومن خلال ذلك، حاولنا الوقوف على مدى تأثر الثعالبي بالسياق السياسي والثقافي والعلمي للنصف الأول من القرن 20. بمعنى آخر، النظر في نقاط التقاطع والاختلاف بين منهجه في الكتابة التاريخية ومنهج معاصريه.

الكلمات المفتاحية: الشيخ عبد العزيز الثعالبي، التاريخ، تونس، المغرب العربي، التاريخ العربي الإسلامي.

مقدمة:

غالبا ما يرتبط اسم الشيخ عبد العزيز الثعالبي بالنضال السياسي. فهو الذي كرّس حياته كلّها خدمة لقضيّته المركزية، قضية التحرر الوطني من الاستعمار، التي تصدرت اهتماماته وانشغالاته اليومية منذ عقده الثاني وإلى غاية رحيله عن الدنيا (سنة 1944). ويرجع إلى هذا الرجل الفضل في التأسيس للنضال الحزبي المنظم عبر إشرافه على تكوين أول حزب سياسي سنة 1920، وهو الحزب الحر الدستوري الذي سيقود معركة التحرر لاحقا بالتعاون مع مختلف المكونات والتنظيمات الوطنية الأخرى.

لكن بالإضافة إلى نشاطه السياسي، هو أيضا رجل فكر وثقافة، إذ تميّز إنتاجه في هذا الإطار بالتنوع والغزارة. ومن أبرز المجالات التي كتب فيها، علاوة على العلوم الدينية والسياسة، مجال التاريخ إذ دوّن بعض المؤلفات مثل "مقالات في التاريخ القديم" الذي تعرض فيه إلى تاريخ شمال إفريقيا قبل الفتح الإسلامي (27هـ -296هـ /647-909م)، ثمّ كتاب "تاريخ الهند"، هو جمع لمقالات نشرت في جريدة "الإرادة" ما بين مارس وجوان 1939، والذي بدأ بنشر فصوله الأولى سنة 1939 (نشرته دار الغرب الإسلامي سنة 1986). ولئن مثّلت هذه الشخصية محور اهتمام عديد الكتب والدراسات والمقالات والندوات العلمية إلا أن التركيز في هذه الأعمال ظل متمحورا حول مسألتين أساسيتين: نضاله الوطني ضد الاستعمار ونشاطه العلمي وأفكاره التحررية، لتبدو بذلك العناية بكتاباته التاريخية ضعيفة.

وستحاول هذه الورقة العلمية تقديم قراءة تحليلية نقدية لإنتاجه التاريخي سعيا منها للوقوف على أبرز خصائص المنهج التاريخي لدى الشيخ الثعالبي، ورصد تصوّره المجالي والزماني للتاريخ، ومنهجه

Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

العملي ومقاربته النظرية، وتنزيل ذلك ضمن تطور المدرسة التاريخية عموما خلال النصف الأول من القرن20. كما سيحاول هذا المقال الوقوف أيضا على مدى تأثر كتابته للتاريخ بتوجهاته الفكرية والسياسية التي تبلورت على إثر تجربة ثرية في النضال السياسي ونشاط مكثف داخل تونس وخارجها امتد على قرابة نصف قرن من الزمن.

أولا: الروافد الفكرية لتكوين الشيخ عبد العزيز الثعالبي:

يحمل الشيخ عبد العزيز الثعالبي في تكوينه الفكري سمت المثقف العربي الإسلامي في صورته التقليدية ذي الثقافة الموسوعية حتى أنّ تعدد اهتماماته الثقافية حالت دون سهولة تصنيفه[1]. بدأ مسيرته السياسية وهو في الحادي والعشرين من العمر (سهم في تأسيس الحزب الوطني الإسلامي سنة 1895)، واشتغل أيضا وبشكل مكثف بالصحافة على مدى 50 سنة تقريبا[2]، خاصة الوطنيّة وذات التوجه الإسلامي مثل "المنتظر" و"المبشر" و"المشير"، ثم أصدر بنفسه جريدة "سبيل الرشاد" سنة 1895[3] وجريدة "الاتحاد الإسلامي" سنة 1909 (صحبة علي باش حانبة). هذا علاوة على اشتغاله بعديد الصحف العربية. كما اهتم أيضا بالرحلة والنقد الأدبي والتاريخ وغيرها من الجوانب الثقافية.

أمّا بخصوص إنتاجه التاريخي، فمهمّ التذكير أن للثعالبي قد أنجزه وهو في العقد السابع والأخير من عمره، أي بعد طول عهد من النضال السياسي والفكري، قضّى نصيبا هامّا منه في الترحال والسفر بين الأقطار دفاعا عن قضيّته الوطنية. ومن هنا تبدو أهميّة دراسة هذه الآثار التاريخيّة كمدخل لمعرفة خلاصة تجربته السياسية والفكرية الثرية.

ويشترك الثعالبي مع رواد الإصلاح (مثل خير الدين التونسي والطهطاوي) في الشغف بمطالعة الكتب التاريخية. وهو بذلك يواصل في تقليدا عربيا إسلاميا في الكتابة التاريخية مع تطويره حسب قدراته المعرفية، وذلك خلافا لرأي المستشرقين الذين يقولون بعدم اهتمام العرب المسلمين بالتاريخ كعلم أو كفلسفة[4]. أبرز كتاباته التاريخية أنتجها بعد عودته إلى تونس، وتحديدا بين سنتي 1937 و1944، على إثر اعتزال السياسة – على إثر بعد الخلاف بينه وبين الديوان السياسي- وعكوفه في بيته على التأليف ونشر المقالات التنظيرية في جريدة "الإرادة" و"الفجر". وخلال تلك الفترة، كان يقدّم بمنزله دروسا لروّاده من الأنصار والطلبة (إلى غاية سنة 1944)[5]. من أهم كتاباته التاريخية "تاريخ شمال إفريقيا" و"خلاصة من التاريخ القديم".

وقد استفاد الثعالبي، في هذا الإطار، من روافد معرفية مختلفة يمكن حصرها في يلي: تكوينه المتين والرحلة والنضال السياسي. فعلى مستوى معرفي وعلمي، تميّز بتكوينه المزدوج الذي جمع بين التعليم الزيتوني والتعليم العصري. فبعد الانقطاع عن التعليم الزيتوني (سواء حصل منها على شهادة التطويع سنة 1896[6] أو لم يحصل[7])، تردد على المدرسة الخلدونية التي نشطت مع قدماء الصادقية من خلال المنتديات والمحاضرات التي تمحورت حول فكرة تأكيد الروابط العربية، خصوصا بين أقطار المغرب الثلاثة، في مواجهة خطر الاستعمار الأوروبي[8].

[1] جماعي: 1993، ص114
[2] الذوادي، زهير: 1995، ص 16
[3] الشعبوني: 1991، ص10،
[4] الذوادي: ص110
[5] الشعبوني: ص17
[6] الذوادي: ص6
[7] الشعبوني: ص 10
[8] بن عاشور: 2009، ص206

Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

كما استفاد كذلك، على غرار كبار رموز الحركة الإصلاحية، من السفرات والرحلات متعددة الأغراض علما بأن الرحلة تعد في تاريخ كبار المفكرين العرب والمغاربة أساسا مرحلة هامة من مراحل تكوينهم العلمي والمعرفي. فلئن كان الشرق وجهتها الأساسية قبل القرن 19، إما لأداء مناسك الحج والعمرة أو لطلب العلم، فقد تعددت اتجاهاتها خلال الفترة المعاصرة. ولم يحد الثعالبي عن هذه القاعدة العامة إذ غادر البلاد سنة 1923 ليعود إليها سنة 1937 ليجوب معظم دول المشرق. انطلق من ايطاليا ثم اليونان، فتركيا ومصر، والحجاز، واليمن، واستقر بالعراق (قام بالتدريس في جامعة أل بغداد) ثم رجع إلى مصر قبل أن يزور الصين والهند وسنغفورة، وقام بتحقيق حول أحوال المسلمين قدمه إلى سلطات جامع الأزهر ليعود إثرها إلى تونس سنة 1937[1]. ويمكن حصر دوافع رحلاته في حب المعرفة والاطلاع والتحقيق والمقارنة من ناحية، ثم المشاركة في النضالات التحريرية من ناحية أخرى[2]. كما مثّلت هذه الرحلات المطولة فرصة التقى خلالها بعديد الزعماء الوطنيين وروّاد الإصلاح في عصره في العالم العربي والإسلامي آنذاك مثل الشيخ أمين الحسيني (مفتي فلسطين)، ومحمد البسال باشا (العضو بمجلس النواب المصري) ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني.

وإثر عودته إلى تونس، كان قد تشبع بالمبادئ العربية الإسلامية التحررية والمناهضة للاستبداد الاستعماري مستفيدا في ذلك ممّا تشكل لديه من فضاءات معرفية مباشرة وملموسة دفعته للتساؤل حول الوضع السائد في تونس سياسيا واقتصاديا وعسكريا واجتماعيا وثقافيا، ثم التفكير في سبل تقويم هذا الوضع. كما تشكلت لديه فكرة ربط مصير تونس بمصير العالم العربي والإسلامي، لتمثّل بذلك العروبة والإسلام، في نظره، القاعدة الفكرية والحضارية للنهضة الوطنية والتحرر من الاستعمار. حينئذ، مثّل أدب الرحلة مصدرا هامّا لتنسيب الحقائق التاريخية والتخلص من القوالب الجاهزة والحقائق المسبقة بفضل ما تقدّمه المقارنة بين مختلف التجارب الإنسانية وتقلباتها. وهذا ما يفسّر حرص الثعالبي على إضفاء البعد التاريخي على تحاليله للقضايا الاجتماعية والثقافية والسياسية قصد إقناع مخاطبيه.

من جهة أخرى، أصبحت فكرة الإصلاح لدى الثعالبي محورا أساسيا في تكوينه واهتماماته منسجما بذلك مع منهج روّاد النهضة في القرن 19 ثم لاحقا مع زعماء الإصلاح خلال النصف الأول من القرن 20. ويتوافق هذا التوجّه مع طبيعة رسالته المصطبغة بالدعوة الدينيّة والإصلاح الاجتماعي، إلى جانب النضال السياسي، رغبة في مقاومة الاستعمار الأوروبي الذي نسف البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للعالم العربي والإسلامي. فنهضة الأمة كانت إذا بوصلة فكره، والدين الإسلامي مصدر إلهام لمنهجه النظري. ولذلك نراه يتحدث عن تونس كجزء من العالم الإسلامي رابطا نهضتها بنهضة العالم العربي والإسلامي ككل، ورابطا الإصلاح الديني بالإصلاح الاجتماعي[3]، ليبقى بذلك منسجما مع روح الحركة الفكرية في تونس خلال النصف الأول من القرن 20. حينئذ، فلئن تمكّن الغزو الثقافي من ضرب مقومات الشخصية الإسلامية وثوابتها، إلاّ أنّه مثّل، في الآن ذاته، "صدمة إيجابية للعقل الإسلامي"[4] - بحسب تعبير محمد الفاضل بن عاشور- إذ بيّن ضعف حال المسلمين مقابل غلبة أوروبا.

ويأتي توجّهه هذا منسجما مع أدبيات تيار واسع داخل النخبة التونسية، الزيتونية تحديدا[5]، والتي أولت عناية كبيرة بالتاريخ وخصوصا التاريخ التونسي، فضلا عن اهتمامها بالعلوم الإسلامية والأدب

[1] الذوادي: ص14
[2] نفس المرجع: ص106
[3] بن عاشور: ص163
[4] بن عاشور: 1982، ص 380
[5] يمكن الرجوع في هذا الباب خاصة المقالات التاريخية بالمجلة الزيتونية.

Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

العربي. كما كانت هذه الأدبيّات تسعى لإشاعة روح المحافظة على الدين ولغته وتقوية الشعور بوحدة العالم الإسلامي واعتبار الإسلام والعروبة أصل الذاتية التونسية[1]، وهي كلّها معان طبعت تصوّر الثعالبي للتاريخ.

ثانيا: تصوّر الثعالبي للتاريخ:

1- التصوّر المكاني للتاريخ:

يقتضي تقصّي ملامح تصوّر الثعالبي للتاريخ إدراج ذلك ضمن السياق التاريخي الذي عاش فيه، والذي تطورت ضمنه بعض المفاهيم الأساسية مثل "الوطنية" و"الوحدة"، والتي تبلورت في البداية خلال القرن 19، وخاصة مع خير الدين التونسي لتتطور لاحقا مع حركة الشباب التونسي ثم مع الحزب الحرّ الدستوري التونسي القديم والجديد. وإذا كانت مقاربة الساسة المصلحين في القرن 19 قد قامت على ثنائية الدين والوطن، مع ربط خلاص تونس بالدعم العثماني[2]، فإن هذه الثنائية بدأت تتلاشى تدريجيا مع مطلع القرن 20 (مع حركة الشباب التونسي) لتتغيّر تبعا لذلك النظرة القصيرة إلى تاريخ تونس علما بأن قلة من المؤرخين مثل ابن أبي دينار وابن أبي الضياف من اكتفى بالكتابة حول إفريقية الإسلامية دون غيرها[3].

هذا ما يبرز من خلال كتابات الثعالبي التي لا تنحصر في بعدها القطري بل تتعداه لتشمل مجالا أرحب مثل تاريخ شمال إفريقيا سواء قبل الفتح الإسلامي أو بعده، بما يعني حضور البعد المغاربي بقوة في فكره. وهنا نجد الثعالبي حريصا على التأكيد على الأصل العربي للبربر إذا اعتبرهم "من سلائل العرب الأقحاف بفعل الهجرة"[4].

والملاحظ أن مفهوم المغرب العربي كفضاء سياسي وحضاري واحد قد برز لدى النخبة التونسية خلال النصف الأول من القرن 20، وهو مفهوم صنعته أفهام زعماء إفريقيا الشمالية زمن كفاحهم التحرري ضد الاستعمار، وفي فترة ساد فيها انحلال العالم الإسلامي، ثم تغلغل هذا المفهوم لاحقا في نفوس جماهير الناس[5]. غير أن ذلك يبقى مندرجا ضمن رؤية أشمل لتاريخ العالم العربي الإسلامي، هذا على الرغم من الالتباس الحاصل عند هذه النخبة في مفاهيم الوطنية والوحدة والجامعة والخلافة[6].

وبهذا المعنى، لم يخرج الثعالبي عن المنحى العام لفكر النخبة في القرن 19 الذي ظلّ يتحرك في فلك "الأمة الإسلامية" كإطار تقليدي لازال في نظرها صالحا خصوصا وأن الخلافة العثمانية كانت لازالت قائمة آنذاك[7]. كما كان مسكونا بهاجس انبعاث الأمة الإسلامية من الانحطاط الذي واكبها على مدى قرون من الزمن شأنه في ذلك شأن مثقفي عصره، في وقت كانت فيه أوروبا المسيحية تشهد تطوّرا لافتا على جميع المستويات. ولهذا طرح فكرة الإصلاح من زاوية حضارية، معبّرا عن وفاءه للجامعة الإسلامية التي تمثّل العروبة أحد مرتكزاتها، وعن تقديره الشديد لمعاني الأخوة والتضامن بين المسلمين كحالة وجدانية أكثر منها وحدة دستورية، ورابطا التقدم بجمع المسلمين وبالرجوع إلى السنن الإسلامية المطهرة من كل شائبة. ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أنه يعتبر أن ميلاد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يمثل أكبر حادث عالمي في عهد كسرى أنوشروان[8]، وأنّ دار الأرقم بن أبي الأرقم هي مدرسة الإسلام الأولى الخالدة التي أخرجت للعالم أعظم انقلاب عرفه التاريخ[9].

---

[1] بن عاشور: 1982، ص212
[2] لمزيد التوسع في تصوّر خير الدين لتاريخ تونس، انظر: بن سلامة: 1977، ج1، ص 81-94
[3] نفس المرجع، ص 134
[4] الثعالبي: 1986، ص15
[5] للاطلاع على سلسلة المقالات التاريخية التي كتبها البشير صفر، انظر: العريبي: 2000، ص47
[6] نفس المرجع، ص 53
[7] عبد السلام: 1993، ص 544
[8] الثعالبي: 1986، ص178
[9] الثعالبي: 1986، ص 31

Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

لكن هذه المفاهيم تطوّرت تدريجيا لدى النخبة خاصة مع عشرينات القرن الماضي، وهي التي تعاملت بواقعية سياسية مع واقع التفتت السياسي الذي أفرزه الاستعمار الأوروبي ثم اضمحلال مؤسسة الخلافة لاحقا، وهي التي كانت الجامع بالنسبة إلى عموم المسلمين لأكثر من ثلاثة عشر قرنا. كل هذه التطورات دفعت النخبة باتجاه تفضيل العناية بالفضاء القطري والمغاربي فضلا عن فكرة الجامعة الإسلامية التي جاءت كحركة سياسية دفاعية ضد اعتداء الغرب وكترجمة للمشاعر الوجدانية العميقة لدى المسلمين لصيانة وحدتهم[1]. وقد بقيت الأخوة العربية الإسلامية رابطة وجدانيّة في نفوس العرب رغم أن التوفيق بين الوطنية والأمة ظل إشكالية كبيرة.

والملاحظ أن الخطاب السياسي للثعالبي قد تطور مع العشرية الأولى من القرن 20 بشكل ملحوظ من طابعه النخبوي إلى الطابع التعبوي الشعبي النضالي، وبدأ الفصل بين الجامعة الإسلامية والسياسة العثمانية والولاء للخلافة في وقت أدركت فيه النخبة مدى الترابط بين الاستقلال ووحدة المغرب العربي. في تلك الفترة ظهرت الدعوة إلى الاستقلال والوحدة المغربية في صفوف المهاجرين المغاربة في أوروبا. لهذا تحوّل الثعالبي بعد الحرب الكبرى للحديث عن الذاتية التونسية – من خلال كتابه "تونس الشهيدة"- وأصبح أكثر إصرار على الفصل بين الجامعة الإسلامية والسياسة العثمانية، ثم انتقل من الجامعة الإسلامية إلى الجامعة القومية على إثر رحلته إلى الشرق سنة 1923 والتي أتاحت له إثراء تجربته السياسية خاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية (1924)، وقطع الكماليين صلاتهم بالتراث العربي الإسلامي[2].

بمعنى آخر، بدا الثعالبي في تصوّره مقتفيا أثر البشير صفر الذي أخضع التراث العثماني لمنطق التحليل العلمي، رغبة في البناء، مبتعدا عمّا كان يضفى عليه من هالة وقدسية[3]. لهذا ليس غريبا أن نراه، في مقال له بجريدة الإرادة (1939/1/25)، يعتبر الحضور العثماني نكبة أودت بالسيادة العربية وعزلت العرب بصورة قاطعة عن المسرح الدولي وعن الإسهام في أحداثه[4] ليصبح بذلك (خاصة بين سنتي 1929 و1944) من أكبر الدعاة للوحدة العربية[5] نظرا لأن الجامعة الإسلامية لم تعد السبيل الموصلة وفقدت فعاليتها. وقد بدا ذلك في دراساته التاريخية، والتي قرّر من خلالها أن الوحدة العربية ضرورة حتمية للاستقلال والتقدم ليتماهى بذلك المشروع الوطني مع الوحدة العربية، والعروبة مع الإسلام خصوصا وأنّ أولى إرهاصات مفهوم الوطنية لم تظهر إلا في الثلاثينات[6].

وهنا نجد الثعالبي يحدد جغرافيّة العالم العربي من العراق إلى المغرب الأقصى معتبرا عروبة منطقة المغرب العربي حقيقة قاطعة تعود إلى خمسة آلاف سنة على إثر هجرة العرب إليها قديما[7] مرجحا إحدى تأويلات مصادر التاريخ الإسلامي. ولأنّه يعتبر إفريقية قبل الإسلام دولة سامية[8]، فقد بدا معتزا بدخول حسان بن النعمان إليها (سنة 70هـ) واصفا إيّاه بأنه كان "في قوة ومهابة طأطأت لهما الأعناق بعد أن تناسوا أيام العرب"[9]، ومعتبرا سيطرة هذا القائد على قرطاجنة على حساب الروم ليس إلا إعادة لها إلى

---

[1] بن سلامة: ص49. وانظر أيضا:بن عاشور: ص115.
[2] جماعي: 1993، ص13- 15،
[3] وفي هذا يقول: "معاذ الله أن نسلك بهذه الصحيفة (الحاضرة) طريق التطرف في الحكم والتهور في الانتقاد على دولة الخلافة الإسلامية وأن نقتفي في ذلك أثر المارقين الذين اتخذوا التنديد لحاجة في النفس... لذلك نرى الإصداع بالحقيقة مع الاعتدال في اللهجة وإخلاص النصيحة أعظم واجب"، انظر: العريبي: ص419
[4] الشابّي: ص26
[5] نفس المرجع، ص17
[6] يرى البشير بن سلامة أن الحزب الحر الدستوري الجديد هو أوّل من بلورة مفهوم الوطنية في معناها القطري. أنظر: بن سلامة: ص 56
[7] الثعالبي: 1986، ص68
[8] الشابّي: ص21-22
[9] الثعالبي: 1987، ص66

Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

"أحضان أمّها العربية"[1]. كما صوّر دخول المسلمين إلى قرطاج (سنة 78هـ) بمثابة عيدين في عيد: عيد الميلاد (المولد النبوي الشريف) وعيد الخلاص بسيوف أحفاد الذين أُجلوا عنها قبل حوالي ثمانية قرون ونصف (843 سنة). فـ"لولا اليقظة الإسلامية للمّ شعث العرب –يقول الثعالبي- لظلت قرطاجنة إلى الأبد قرحا في الصدور يذكر بأعظم مأساة وقعت لهم في التاريخ"[2].

هكذا بدا إذن معتزا بالبربر وبأصلهم العربي، وهم الذين "طفح بهم مكيال الجزيرة منذ أقدم العصور وانسابوا على أديم هذه الأرض"[3]. ويتماهى هذا الطرح القائل بالأصل العربي للبربر مع ما ذهب إليه أغلب الدارسين لتاريخ البربر، وخاصة التونسيين منهم، رغم وجود بعض التأويلات الأخرى التي تأرجحت بين نظريتين أخرتين تقول إحداهما بالأصل الهندي الأوروبي للبربر، وتقول الثانية بالأصل المزدوج[4]. فحسب عثمان الكعاك (1903-1976)، البربر هم عرب من العاربة القحطانية"[5] نزحوا من اليمن باتجاه الحبشة ومصر وليبيا لينتشروا في ربوع المغرب وجهات من الصحراء وأطراف من مصر والجزائر، أما البعض الآخر من البربر فقدم إلى شمال إفريقيا قادما من أوروبا[6]. وقد استفاد الكعاك وغيره من المؤرخين التونسيين مثل حسن حسني عبد الوهاب والبشير صفر مما كتبه ابن خلدون[7] الذي اعتمد بدوره على عدة مصادر إسلامية أبرزها: أبو يوسف الورّاق وإبراهيم الرقيق وأحمد التيفاشي[8].

وقد يفهم تأكيد الثعالبي على الأصل العربي للبربر من زاوية ردّ الفعل عن السياسة التعليمية الفرنسية بتونس زمن الاستعمار، والتي سعت إلى تقديم قراءة غير محايدة لتاريخ شمال إفريقيا عبر التمييز بين العرب والبربر، وترويجها لفكرة الأصل الهندوأوروبي للبربر[9]. طرح كهذا يمكن أن يشوّش على الشباب التونسي ويقدم لهم تصورات مشبوهة حول تاريخهم وحضارتهم.

في نفس ذات السياق، بدا الثعالبي، وفي مواطن كثيرة، ممجّدا لأحوال العرب ومؤكدا على فضلهم الكبير على الإنسانية. فهم الذين ساهموا- في رأيه- في بناء العبقريّة الثقافيّة اليونانيّة كواحدة من أبرز الثقافات القديمة التي انتشرت في كامل العالم المتوسطي، بسبب أخذ الإغريق عن الفينيقيين[10]. في مقابل ذلك لم يُخلّف الفرس – ذوي الأصل الآري[11]- شيئا غير الدمار والخراب[12]. وهذا البعد العرقي في دراسته للتاريخ جعله يحصر التاريخ العربي، ومنذ أقدم العصور، في قصص النزاع المستمر بين العرب والآريين[13] سواء قبل ظهور الإسلام أو بعده، وإن تحوّل الصراع في المرحلة الثانية على المبادئ.

اعتبر الثعالبي الدولة العباسية دولة آرية[14] متّهما العباسيين بإيقاظهم الروح الشعبوية (القومية) في أقطار الإسلام الأمر الذي أدّى إلى الاستقلال الداخلي للولايات غير العربية الواحدة تلو الأخرى لتتخلص بذلك من الحكم العربي المركزي الذي وضعه المروانيون[15]. ولهذا رأى في انتقال الحكم إلى العباسيين

---

[1] نفس المرجع، ص67
[2] الثعالبي: 1987، ص19-ص68
[3] الثعالبي: 1986، ص67
[4] الكعاك: 1957، ص 50
[5] نفس المرجع، ص 11
[6] نفس المرجع، ص 7
[7] ابن خلدون: ج6، ص128
[8] نفس المرجع، ص 36
[9] لمزيد التفصيل حول السياسية التعليمية الفرنسية بتونس زمن الاستعمار، انظر كتابنا: غفيري: 2020، ص214 فما بعد
[10] الثعالبي: 1986، ص109
[11] نفس المرجع، ص98
[12] نفس المرجع، ص107
[13] الثعالبي: 1986، ص70
[14] الشابّي، ص21-22
[15] الثعالبي: 1987، ص201

Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

"فاتحة انقلاب سياسي تتطور به حياة الشعوب غير العربية الداخلة في الإسلام وتعويضها بنوع من نظام الإقطاع القائم على اصطناع الأُسر"[1]، كما قطع النظام العباسي مع سياسة التكافل بين الأجناس ليفقد بذلك نظام الحكم الجديد تجانسه. كلّ ذلك أيقظ النعرات القوميّة في مختلف المكونات العرقية للمجتمع التي صهرها نظام الخلافة، ثم تدرج هذا التفكك إلى أن صار أوضاعا قوميّة نابية عن وحدة الإسلام ومنافية لروحه. ويستطرد في هذا السياق قائلا: "وهذا ما يدعو المؤرخ العربي إلى اتهام الانقلاب العباسي بأنه مؤامرة كيدية ضد العرب لانتزاع سيادة الحكم من أيديهم وتسليمها إلى الأعاجم"[2].

ومن هذا المنطلق، يمكن فهم استحسانه انفصال الدولة الأغلبية بإفريقية عن الدولة العباسية، ورفضه فكرة التشتت السياسي، متّهما في ذات الوقت الشيعة –التي وصفها بالكفر والإلحاد- ببذر الشقاق في صفوف المسلمين والعمل على تقويض وحدتهم. ومن هنا يبدو جليّا طغيان الخلفية السياسية في تحليل هذا السياسي الذي كرس حياته لمكافحة الاستعمار والنضال من أجل الجامعة الإسلامية والوحدة العربية، بما يمكن أن ينظر إليه على أنّه ابتعاد عن الموضوعية التاريخية.

وفي مقابل دعوته إلى حكومة مركزية قوية، انقد بصفة لاذعة النزعات الانفصالية وحالات **التفكك السياسي** التي آلت إليها أوضاع العرب بعد تجارب عديدة من الوحدة الإسلامية إلى الحد الذي "وقف لعرفات في حج سنة 68هـ (687م) أربعة ألوية لأربعة أيمة يتنازعون الخلافة: لواء محمد بن الحنيفية، لواء عبد الله بن الزبير ومعه أصحابه، لواء عبد الملك بن مروان (انحصر ملكه في مصر والشام)، لواء نجدة الحروري، وهو خوارج، (استقرت دعوتهم في فارس والأهواز)"[3]. وحتى لا يبقى في مستوى الوصف، عمد الثعالبي إلى تحديد عوامل التفكك فحصرها في عاملين أساسيين: "فتنة العنصرية" التي اشتعلت بإفريقية[4] و"سياسة التفوّق الخاطئة" التي اتبعها المروانيون، والتي استغلتها أحزاب الشيعة والخوارج لنشر الفتنة بين الناس[5]. وقد سلط الضوء في هذا الباب على النزعة الانفصالية التي كانت لـ"بعض البربر الدهات" الذين سعوا إلى تكوين عقيدة جديدة[6]، وهي النحلة البرغواطية (القرنان3 و4)، وإلى تأسيس "حكومة بربرية محضة لا شائبة فيها للعرب"[7] معتبرا عثرة في طريق الإسلام والعرب على امتداد حوالي قرنين من الزمن حتى تمكّن تميم اليفرني من القضاء عليها سنة 420هـ[8].

من جهة أخرى، نوّه بحالات الوحدة السياسية والسلطة المركزية مثلما كان الحال زمن عبد الملك بن مروان الذي مجّد فيه ثباته ورصانته، صفات تفرّد بها دون غيره ممّن سبقوه "حتى ملك ناصية الدنيا، وانتزع الخلافة من أيدي المفترين عليها وأعاد للدولة الأموية رونق عظمتها وجدد لها سرج الشباب... وكان خصومه بالرغم من ذلك أقوياء من أقطار مختلفة ودوي عصبيات، ولكنه مازال بهم حتى غلبهم جميعا وأنال منهم ورد للمسلمين وحدتهم بعد أن أصيبت بداء الانقسام"[9]. كما أعلى من شأن الدولة الأغلبية (184-296هـ/ 800-909م) واصفا إيّاها بـ"الولاية الممتازة"[10]، ومعتبرا إيّاها "دولة عربية مسلمة بأوسع معاني

[1] نفس المرجع، ص202
[2] نفس المرجع، ص202
[3] نفس المرجع، ص62
[4] نفس المرجع، ص130
[5] نفس المرجع، ص143
[6] نفس المرجع، ص19
[7] نفس المرجع، ص146
[8] نفس المرجع، ص152
[9] نفس المرجع، ص65
[10] الثعالبي: 1987، ص203

Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

الكلمة، رشيدة الأمر، حكيمة السياسة"[1]. ونوّه بخصال إبراهيم بن الأغلب الذي صوّره على أنّه "من رجال الدنيا الأفذاذ في العلم والسياسة وحسن التدبير والدراية بالحروب"[2].

وعليه، فالثعالبي ظلّ يدافع عن فكرة الوحدة السياسية والسلطة المركزية القوية والبعد عن كل ما من شأنه أن يكون سببا في التفكك السياسي من نزعات عنصرية أو مذهبية معتبرا أن الوحدة العربية شرط أساسي للاستقلال والتقدم[3].

بالإضافة إلى الجانب السياسي، ركّز الثعالبي كثيرا على نبل أخلاق العرب وسماحتهم، فهم "ينتظرون الفرصة لردّ الشرف المضاع والانتقام من عدوّهم انتقاما خفيفا رحيما"[4]، كما "لا يمسكون عن الأخذ بالثأر"[5]. وفي حديثه عن إصرار العرب عن فتح شمال إفريقيا وبعد حوالي نصف قرن (48 سنة)، يقول: "وذلك هو شأن العرب، فهم لا يقيمون على ضيم يُراد بهم ما لم يدركوا ثأرهم ولو بعد قرون". ويصف دخول حسان بن النعمان قرطاجنة على أنّه كان "آسيا جابرا لا كما دخلها سيبيون الأصغر مدمّرا فاتكا ورأى من كبريائه العربي أن لا يثأر من المغلوبين لما فعلوه بأجداده أو ما فعله أسلافهم الرومان"[6]. وعلّق عن هزيمة حسان بن النعمان أمام الكاهنة - التي اعتبرها "أشنع" هزيمة للعرب في إفريقية وأول انكسار تاريخي لهم- بقوله: "ولكن العرب قوم لا يخملهم انكسار ولا يثملهم انتصار"[7]. وفي باب سماحة الإسلام، تحدث عن حسن استقبال النصارى لحسان بن النعمان بالبشائر والأفراح إذ "كانوا يرونه كمخلّص حقيقي بعثه الله لإنقاذهم باسم الإسلام من جور الكاهنة وعتوّها، فكان يستقبلهم بالرضا ويعاملهم بالعدل والإحسان ويتغاضى عما سلف منهم" في تلك الواقعة "الحاسمة بين الفوضى والإسلام"[8]، والتي عجّلت بـ"ساعة بعثهم" بعد "وأدهم" من طرف الرومان[9].

كما دافع الثعالبي بشراسة عن فكرة تأصّل قيمة الحرية لدى البربر مصرّحا بأن إحدى أهداف كتابته لتاريخ شمال إفريقيا السعي إلى أن ينفي عن الأفارقة تهمة السعي في استبدال سيّد بسيّد[10]. يقول في هذا الصّدد: "أفارقة الأمس وعرب اليوم لم يعاقدوا الأجانب على استعبادهم وإذلالهم كما يتوهمه الواهمون"[11]. وهي فكرة يتقاسمها مع بعض المؤرخين التونسيين، وذلك ضمن تيار فكري عام في تونس ديدنه إيقاظ الشّعور الوطني التحرّري والدّفاع عن مقوّمات الشخصيّة التونسيّة. فحسن حسني عبد الوهاب انتقد فكرة ذوبان الأفارقة في الدول الغازية حتى في حالات فقدانهم لاستقلالهم السياسي مؤكدا، في ذات الوقت، شدّة تعلقهم بحريتهم[12]، أما عثمان الكعاك فاعتبر البربر شعب الأمازيغ أي الأشراف الأحرار[13].

وبهذا المعنى، اعتبر الثعالبي غياب العدالة الضريبية تجاه السكان المحليين "غلطة فاحشة" وقع فيها القرطاجيون وسبّب زوال ملكهم[14]. فغرور هؤلاء كان وراء إذلال الأفارقة واحتقارهم لأنّهم اعتبروهم مجرد "متاع حقير" متناسين مساهمتهم في بناء قوة قرطاج وازدهارها. حينئذ، يرى الثعالبي أن سقوط قرطاج لم

---

[1] نفس المرجع، ص203
[2] نفس المرجع، ص49
[3] الشابّي: ص 19
[4] الثعالبي: 1987، ص68
[5] نفس المرجع، ص145
[6] نفس المرجع، ص68
[7] نفس المرجع، ص72
[8] نفس المرجع، ص76
[9] نفس المرجع، ص97
[10] الثعالبي: 1986، ص32
[11] نفس المرجع، ص34
[12] أنظر مثلا: حسن حسني: 1972، ص244
[13] الكعاك: 1957، ص 7
[14] الثعالبي: 1986، ص20

Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

يكن بقوة الرومان بقدر ما كان بسبب "مغاضاة الأفارقة كمواطنين ساهموا في بنائها على امتداد ستة قرون"[1]. ثم إن هذه الرغبة في الحرية هي التي دفعت الأفارقة للتنصّر لا حبّا في النصرانية وإنّما كوسيلة للتخلص من اضطهاد الرومان، وهذا ما جعلهم لا يثبتون عليها[2].

ومن هذا المنطلق، يمكن فهم وصف الثعالبي للكاهنة، رمز الاستقلال في نظر البربر، بكونها "مثلا للبسالة النسائية في تاريخ الثورات الكبرى"[3]. كما أبدى أيضا إعجابه بثباتها العجيب في المعركة، ثبات "يفوق الحديث عن الأبطال الخرافيين الذين خلفتهم مخيّلة هوميروس شاعر الإلياذة"[4]. ويتحدث عن قتلها بنوع من الأسى إذ يقول: "بعد معركة صارمة في طبرقة ذهبت هذه المرأة النادرة ضحية الدفاع عن حمى البلاد"[5]. لكنه سرعان ما يستدرك بعد ذلك فيقول: "وفي الوقت نفسه استراحت إفريقية من عسفها وجورها"[6]. كما نوّه بطيبة أمراء نوميديا مثل يوغرطة الذي شرع في "توحيد الأمة"، والذي تميّز بـ"وطنية نادرة وإخلاص فريد"[7].

ولم يقتصر حديث الثعالبي على الفترة القديمة بل قفز للحديث عن الفترة المعاصرة مقارنا أشكال الهيمنة القديمة بالأشكال المعاصرة (القرنان 19 و20) ومؤكدا في ذات الوقت على أنّ العرب "طلاب حق لا عبودية"، و"كما تخلصوا من ربقة الأتراك بحد السيوف، سيتخلصون أيضا من الطامعين في إسلابهم، وعلى الباغي تدور الدوائر"[8].

2- التصوّر الزماني للتاريخ:

يلحظ المتتبع للكتابات التاريخية التونسية، وإلى غاية القرن 19، أن أغلب التواريخ تبدأ من الفتح الإسلامي لإفريقية مع تهميش واضح للفترة التي سبقت ذلك التي كانت تعد قرونا مظلمة لا جدوى من دراستها. وهذا ما يسفر عدم اهتمام هذه الكتابات بعديد المسائل والمواضيع من ذلك مثلا الموروث التاريخي البوني والروماني والبيزنطي، كما لم تنوّه بالأصل البربري الذي ينتسب إليه قسم كبير من سكان البلاد[9]. ورغم التطوّر الحاصل عند العرب بخصوص تصور التاريخ، وخاصة انطلاقا من القرن 17 ثم القرون التي تلت، إلا أنّ الاهتمام بفترة ما قبل الفتح الإسلامي ظلّ غائبا عدا النزر القليل عن تاريخ إفريقية[10].

ولئن لم يشذ الثعالبي عن هذا المنهج العام ببدايته بالفتوحات الإسلامية، انسجاما مع من سبقه من المؤرخين التونسيين مثل ابن أبي دينار وأحمد بن أبي الضياف والباجي المسعودي، إلا أنه لم يهمل فترة ما قبل الفتح إ ذ بدا معتزا بالقرطاجيين وبمقاومتهم الباسلة للرومان معتبرا قرطاج "عروس الشرق وملكة البحار"[11]، وأن سقوطها قد أسهم في تدهور حضارة البحر المتوسط، وتعطل سير التمدين الإنساني بضعة قرون، وهي –في نظره "فاجعة" – تركت على مرّ القرون في أفئدة الوطنيين "قروحا لا تندمل ولا ينساها

[1] نفس المرجع، ص29
[2] نفس المرجع، ص42
[3] الثعالبي: 1987، ص61
[4] نفس المرجع، ص76
[5] نفس المرجع، ص77
[6] نفس المرجع، ص77
[7] الثعالبي: 1986، ص36
[8] نفس المرجع، ص33
[9] عبد السلام: ص 532
[10] بن سلامة: ص44
[11] الثعالبي: 1986، ص28

Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

تاريخنا القومي"[1]. ومن هنا يمكن تفسير نظرته لسيطرة موسى بن نصير على قرطاجنّة على أنّها ليست سوى ردّ لممتلكات إفريقية التي كانت لها على عهد الفينيقيين[2].

ويرجع اهتمام الثعالبي بالتاريخ القديم إلى تأثره بأستاذه في الجمعية الخلدونية البشير صفر الذي كان أول المؤرخين التونسيين المعاصرين بدراسة التاريخ القديم باعتباره جزءا لا يتجزأ من التاريخ القومي[3]. والبشير صفر هو ضمن جيل من الشباب التونسي أصبح يؤمن بضرورة تلقين التاريخ دعما للحس الوطني، وتوظيفه لاستنهاض الهمم استعداد للدخول في معركة الكرامة والحرية. لهذا نجده يحاول ربط الصلة بين الفترات التي سبقت الإسلام.

ثالثا: منهج الثعالبي ومقاربته في الكتابة التاريخية:

1- منهجه التاريخي:

إذا أخذنا بعين الاعتبار أن عبد العزيز الثعالبي، كان مجددا دينيا ومصلحا اجتماعيا، جمع بين الفكر والممارسة، أمكننا حينئذ فهم طبيعة منهجه العلمي في تناول المسائل التاريخية. فهو لم يكتف بسرد الأحداث والوقائع وإنما عمد أيضا إلى تحليلها ونقدها، وكان في أغلب الأحيان يقدم خلاصة أو عبرة في الاجتماع السياسي، وذلك بهدف تجاوز مستوى البناء المعرفي لبناء الوعي الوطني والمجتمعي كأساس لنجاح مشروع النضال الوطني ضد الاستعمار. ولئن اعتبر البعض أنّ منهجه ظلّ تقليديا في مستوى الشكل والمنهج بفعل حدود المعرفة خلال تلك الفترة من تاريخ تونس الفكري والاجتماعي، إلا أنّه استطاع الخروج من دائرة النظرة التقليدية للتاريخ المنحصرة في العظة والتزهد في الدنيا ليجعله مصدرا للوعي التاريخي.

ويبدو جليا أن الهاجس التاريخي كان يوجّه كل كتابات الثعالبي، وأن التاريخ كان جزءا أساسيّا لفهم الظواهر، ومنهجا لعرضها وتحليلها. وهذا ما يبرز مثلا في "روح التحرر في القرآن" (1905) الذي تضمن تقييما تاريخيا لتطور المجتمع العربي الإسلامي وحضارته وثقافته وعاداته المختلفة. كما تهدف مقاربته التاريخية إلى استكشاف إمكانيات التطوير في الحضارة والمجتمع العربي الإسلامي وشروط إقحامهما في عصر التقدم مع المحافظة على الأصالة. أما في كتابه "تونس الشهيدة" فيؤكد على أن الاستعمار مرحلة استثنائية في تاريخ تونس معتمدا منهجا يغلب عليه الطابع التقريري القائم على تسجيل الأحداث في تسلسلها، ومحللا ترابطها دون بلورة منهج تحليلي متميز. وبذلك لم يخرج منهجه عن دائرة النمط الكلاسيكي في الكتابة التاريخية العربية، والتي لم تعرف قطيعة معرفية هامة إلا خلال الثلث الأخير من القرن20، ليظل جهده منصبّا على وصف الظواهر أكثر من تحليلها[4].

أما بخصوص كتابة تاريخ منطقة شمال إفريقيا، فمن الهواجس الأساسية التي كانت تحركه تخليص كتابته من الأخطاء الفادحة التي ارتكبها بعض المستشرقين عن قصد أو عن غير قصد لتشويه صورة الحضارة الإسلامية. في هذا الإطار، وفي محاولة لتصحيح بعض المغالطات بشأن تخريب الكاهنة لإفريقية، يقول: "... ذلك ما خربته الكاهنة لا العرب، كما أرجف به دجاجلة المؤرخين الذين يريدون طمس معالم التاريخ لغاية عارية عن الشرف. ولرد مفترياتهم سنتعرض في غضون هذا الكتاب لذكر ما عمّره العرب بعد التخريب، كشفا للحقائق وإنصافا للأجداد من التاريخ المصنوع"[5]. كما شكك أيضا في رواية المؤرخين

[1] نفس المرجع، ص29
[2] الثعالبي: 1987، ص95
[3] نفس المرجع، ص19
[4] الذوادي: ص112
[5] الثعالبي: 1987، ص74

Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

الأوروبيين بخصوص حصيلة واقعة بواتيي (Poitier) سنة 114هـ التي قدّروها بـ 360.000 قتيلا معتبرا ذلك ضربا من ضروب الدعاية والتهويل[1].

ونفس هذا الهاجس كان وراء إعادة قراءة التاريخ الإسلامي إذ وجّه نقده للقراءة الاستشراقية التي شوّهت تاريخ الإسلام وحضارته وروّجت تصورات مغلوطة حولهما سواء لغاية ضرب مقومات الإسلام، في إطار الصراع بين الشرق والغرب خاصة خلال القرن 19 وما بعده، أو لقصور في الفهم عند بعض المستشرقين بسبب اختلاف البيئة الثقافية الغربية عن البيئة العربية الإسلامية. وقد بدا الثعالبي على وعي تامّ بجذور العداء المستحكم بين العالمين الأوروبي والإسلامي، والذي يرجع إلى المواجهة الدموية زمن الحروب الصليبية، وبمدى تأثير ذلك على الفكر التحرري في هذين العالمين[2]، وكأنّنا به، في هذا الباب، مقتفيا أثر بعض عناصر النخبة التونسية آنذاك أمثال البشير صفر وحسن حسني عبد الوهاب[3].

وفي نفس هذا الإطار، يأتي تأليف كتاب للسيرة النبويّة "معجز محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم" الذي ذكر أن هدفه التنبيه إلى خطر الفكر الأوروبّي غير النّزيه على كتابة التاريخ الإسلام مسلطا الضوء على الدعايات الكثيرة التي كانت تطلق ضدّ العالم الإسلامي والقائمة على "الإغراء" و"الفتنة"، والمدعومة من طرف الدول العظمى، ومؤكدا على تواصل قدرة الإسلام على تحدّي كبار الفلاسفة والمفكرين سواء في العالم العربي والإسلامي أو في بقية دول العالم، بما في ذلك اليابان والولايات المتحدة الأمريكية[4]. ويأتي هذا العمل استجابة لطلب اجتماعي، إذ يصف إقدامه على هذا التأليف على أنه "إجابة للرغبات الملحة التي تقدمت إليّ من أساطين الشباب ونبهاء الطلاب حرصا على تعميم فوائده، واستعراضا لفرائده، وجمعا لشوارده، وقيدا لأوابده"[5]، وذلك لقلة الكتب القيّمة وسهلة الفهم حول حياة النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم.

أمّا منهجه في الكتابة فاعتمد ما صحّ عنده من الروايات و"تبيّنته الدراية سالكا في النقل مسلك الثقات من المتقدّمين، ومعتمدا في التخريج طريقة النقاد المعاصرين". وقد وجّه نقده للخلط الذي وقع فيه عديد المستشرقين سعيا منه لصيانة البحث العلمي من "الإسفاف والتبذّل"[6]. من جهة أخرى، حاول أن يقدّم تحليلا فنيّا مليئا بالعبر في تطابق كبير مع روح العصر وبعيد عن الخوارق والمعجزات[7]. ولإضفاء مزيد من النجاعة على هذا العمل الذي يبتغي فيه "هداية الله وعبرة التاريخ"، حرص على الجمع بين اللّذة الروحية والإمتاع العقلي عبر "أسلوب واضح اللفظ، ظاهر المعنى بحيث يتمثّل لقارئيه كأنّهم عاصروه صلى الله عليه وسلم، وكأنهم سمعوه وشاهدوه"[8].

وكثيرا ما عمد الثعالبي في تحاليله إلى شحنها بمعان دينية عاكسا بذلك تصوّرا يمزج بين المعاني الدينية والفكر العصري، بناء على فلسفة قوامها أنّ الله تعالى قد أقام الدين على "سنن الفطرة وعبر التاريخ"[9]. من الأمثلة الدّالة على ذلك، وفي باب لومه على مبالغة قرطاج في إرهاق الأهليين بالضرائب وإذلالهم،

---

[1] نفس المرجع، ص129
[2] الثعالبي: 1985، ص 37-41
[3] بن عاشور: ص 127- 128
[4] نفس المرجع، ص17
[5] نفس المرجع، ص 10
[6] نفس المرجع، ص 11
[7] نفس المرجع، ص 13
[8] نفس المرجع، ص 19
[9] نفس المرجع، ص 12

Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

يستشهد بالآية القرآنيّة التالية: "وما كان ربّك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون" (هود، 117)[1]. ويقول في سياق آخر "الجزاء الحق يكون من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان"[2].

من جهة أخرى، يقف المتتبع للمحاضرات التاريخية على مؤشرات عديدة دالة على مدى تأثر الثعالبي بالمنهج الخلدوني القائم على التجربة والنظر العلمي الواسع الأفق، وهو منهج أثرى مختلف العلوم الإنسانية، وأخرج التاريخ من تصوّره التقليدي القائم على سرد الأحداث ليتحوّل إلى "نقد وتمحيص لدراسة الأخبار وإعمال لطرائق البحث الفلسفي لاستخراج صور الحياة الماضية بالقياس والاستنتاج واستنباط القوانين العامة من مقارنة صور الأحداث"[3]. وقد ازدهرت هذه المقاربة لاحقا خاصة في القرنين 16 و17 ليظهر على إثر ذلك في القرن 18 علم التاريخ في صورته الفلسفية وليصبح علما ذا دراسة موضوعية.

وعلى هذا النهج الخلدوني سار الثعالبي الذي لم يكتف بنقل الأخبار وسرد الوقائع والأحداث بل عمل على التعليق عليها وإخضاع دراسة التراث والواقع إلى منهج تحليلي نقدي[4] مستخلصا في ذات الوقت العبر والمواعظ. ففي باب نقد سوء سلوك القرطاجيين، يقول: "وكأن عظات الدهر لم تنذرهم بأن الصلف والكبرياء في نفوس المتغلبين يفرخان في روع المقهورين حب الثأر والانتقام"[5]. ويقول بخصوص تحوّل العاصمة من قرطاحنة إلى القيروان: "فتخربت (قرطاجنة) بالإهمال ولم تقو على مقاومة عوادي الدهر فخلفتها القيروان بعد الصيت، والدنيا دول بين الناس والبلدان"[6]. ويصف هزيمة البربر أمام المسلمين، كسنة من سنن الاجتماع السياسي، بكونها "إيذانا للأفارقة بأن الملك قد دار دورته ورجع إلى العرب"[7]. كما يقول في شأن غضب البربر بسبب مقتل زعيمهم كسيلة: "وما أقدر الأمم المغلوبة الماكرة على إخفاء موجدتها أمام الغالب القاهر، وتصنعها الرضا الكاذب"[8].

2- مقاربته التاريخية:

إن المتأمل في أبرز الكتابات التاريخية للثعالبي يقف على ملاحظة هامة، وهي أنه يعتمد على التاريخ الحدثي أساسا إذ ظلّت الأحداث السياسية والوقائع الحربية غالبة على كتاباته مع ضمور واضح للمسائل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وقد لا يبدو هذا الأمر مستغربا إذ أخذنا بعين الاعتبار أولا السياق الثقافي العام وطبيعة المصادر التي اعتمدها. في المستوى الأول، من الطبيعي أن يتأثر الجهد الثقافي بتونس بما يجري في أوروبا عامة، ذلك أن المدرسة الوضعية ظلت مهيمنة على الكتابة التاريخية بفرنسا إلى غاية الثلاثينات. من جهة أخرى، لم تشهد الكتابة التاريخية العربية قطيعة معرفية هامة إلا خلال الثلث الأخير من القرن20. أما في المستوى الثاني، مستوى المصادر المعتمدة، فقد اعتمد الثعالبي في كتابته لـ "تاريخ شمال إفريقيا" أساسا على مصدرين أساسيين، وهما "الكامل في التاريخ" لابن الأثير، و"البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذاري.

غير أن الحضور المتميّز للمقاربة الوضعية لا ينفي عنايته أيضا ببعض المسائل الأخرى إذ يمكن اعتبار كتابيه "المنبوذين في الهند" و"تاريخ الأديان" نوعا من التاريخ الثقافي والفكري. ففي كتابه الأول، تعرض إلى حالة التدهور التي عليها المسلمون في الهند، محاولا تعليلها بتخلي هؤلاء عن مواكبة الديناميكية

---

1 الثعالبي: 1986، ص21
2 نفس المرجع، ص 46
3 بن عاشور: ص 169
4 الشابّي: ص11
5 الثعالبي: 1986، ص21
6 الثعالبي: 1987، ص71
7 نفس المرجع، ص69
8 نفس المرجع، ص61

Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

الإنتاجية والاقتصادية التي انخرط فيها الهنادكة، وأيضا التسامح الكبير أو المفرط والمبالغ فيه للمسلمين هناك. وكان يسعى من خلال ذلك إلى البحث عن الوسائل الممكنة للتمكين للمسلمين في الهند، وليس لانصهار هؤلاء ضمن الاختلاف العقائدي. وهذه الفكرة تأتي متوافقة مع ما طرحه الزعماء المسلمين في الهند آنذاك. وهذا يعني انحياز الثعالبي إلى المسلين في صراعهم ضد الهندوكية ورموزها، منطلقا، في ذلك، من موقعه كرجل إصلاح مسلم ومناضل سياسي ضد الاستعمار[1].

كما اعتمد الثعالبي أيضا على منهج المقارنة بالمقابلة بين الحاضر والماضي، وهي طريقة تعليميّة اعتمدها في تناول المسائل التاريخية حرصا منه على تقريب المعاني المراد تبليغها إلى أذهان الناس وخاصة الشباب منهم. فالانطلاق من الحاضر لاستحضار الماضي مهمّ لبلوغ المقاصد وتقريب المعاني لأفهام الناس رغبة في بناء وعي على أسس صلبة. بمعنى آخر، فإن وجوده تحت التأثير الشديد لانشغالات الحاضر جعلت خلفيّته النضالية، كناشط سياسي وكمصلح اجتماعي، موجّهة وملازمة لكل كتاباته. من هنا، يمكن فهم استعماله لمفردات ومفاهيم عصرية للتدليل أو لوصف وضعيات معينة، من ذلك : "الحكومة القومية" و"الديمقراطية الإسلامية" و"الدستور" و"المؤتمر الملي" و"الاعتصاب"، وغيرها من المفردات، رغم ما يطرحه ذلك من إشكالات منهجية متصلة بمسألة الإسقاط التاريخي التي من شأنها التأثير سلبا في القيمة العلمية لما يكتب. فهو مثلا يقارن بين الأفارقة القدماء والعرب المعاصرين في غياب الحذر والتبصر بسبب تناسي عبر التاريخ بما أوقعهم في مشاكل صعبة كان يمكن تجنّبها[2]. كما قارن السلف بالخلف في سلامة النيّة والاغترار بتصديق كل ما يلقى إليهما العدوّ ولو كان متناقضا مع العقل[3].

خاتمة:

إن المتأمل للكتابات التاريخية للثعالبي يقف على جملة من الملاحظات الهامة التي يمكن إجمالها كالتالي. أولا، الجهد الثقافي لهذا العلامة ليس سوى حلقة ضمن سلسلة من الأنشطة المختلفة تشمل بالإضافة إلى ذلك خاصة النضال السياسي الذي شبّ عليه وواصله داخل الوطن وخارجه إلى آخر أيام حياته. ظل الشيخ عبد العزيز الثعالبي منذ بداية شبابه وحتى آخر لحظات حياته مسكونا بهاجس التحرر من الاستعمار كقضية وطنية مركزية وجهت كل اهتمامه وانشغالاته وتحركاته. وحاول في هذا الإطار الاستفادة من كل الوسائل الممكنة والمتاحة، من ذلك تجربته الثرية في السفر والترجال التي مكنته من توسيع أفق تفكيره وإثراء تجربته السياسية.

ثانيا، ثمة ترابط وثيق بين النضال السياسي والنضال الثقافي. فالالتزام بقضية التحرر من ربقة الاستعمار كخيار سياسي كان إذن حاضرا بقوة في كل ما كتب، وطبع بقوة اتجاهات مؤلفاته. بمعنى آخر، فإن نشاطه العلمي والثقافي كان نشاطا موجّها، الغاية منه مقاومة كل أشكال الاستعمار عبر تقديم مادة معرفية متوازنة تمزج بين الأصالة والانفتاح على روح العصر، وتكون بالتالي مادة تربوية وتعليمية بناءة في تكوين الشباب التونسي. ومن هذا المنطلق، جاءت كتاباته منسجمة مع هذه الشخصية المناضلة والمتأصلة في بيئتها الثقافية العربية الإسلامية مستلهمة منها سبل الخلاص من الاستعمار.

ثالثا، لا يمكن فهم اتجاهات الكتابة التاريخية عند الثعالبي إلا بوضعها في سياقها الثقافي العام. فغلبة النظرة الكلاسيكية عنده مردّها اندراجها ضمن الكتابة التونسية خاصة، والعربية عموما التي لم تتطور كثيرا خلال النصف الأول من القرن 20، هذا إضافة إلى تأثره بتطوّر المدرسة التاريخية الفرنسية من جهة أخرى خلال تلك الفترة.

---

[1] الذوادي: ص108
[2] الثعالبي: 1986، ص 27
[3] نفس المرجع، ص34

Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

Compliance with ethical standards

Disclosure of conflict of interest

The author(s) declare that they have no conflict of interest.

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج6
2. بن سلامة، البشير (1977): النظرية التاريخية في الكفاح التحرري، تونس: نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، ج1
3. بن عاشور، محمد الفاضل (2009): الحركة الأدبية والفكرية في تونس (في القرنين 13-14هـ/19-20م)، تونس، بين الحكمة
4. ---------- (1982): ومضات فكر، تونس: الدار العربية للكتاب
5. الثعالبي، عبد العزيز(1987): تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، جمع وتحقيق أحمد ميلاد ومحمد إدريس، بيروت: دار الغرب الإسلامي
6. ----------(1986): مقالات في التاريخ القديم، جمع وتحقيق جلول الجريبي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1
7. ----------(1985): روح التحرر في القرآن، نقله من العربية حمادي الساحلي، بيروت: دار الغرب الإسلامي
8. ----------(1986): معجز محمد رسول الله، ج1، ط 3، بيروت، دار الغرب الإسلامي
9. جماعي (1993): الزعيم الشيخ عبد العزيز الثعالبي وتجديد الفكر الديني، تونس: وزارة الشؤون الدينية
10. الذوادي، زهير(1995): الوطنية وهاجس التاريخ في فكر الشيخ عبد العزيز الثعالبي، تونس: سيراس للنشر
11. الشعبوني، محمد (1991): عبد العزيز الثعالبي في الشعر العربي، تونس: بيت الحكمة
12. عبد السلام، أحمد (1993): المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19. رسالة في تاريخ الثقافة، تعريب أحمد عبد السلام وعبد الرزاق الحليوي، تونس: بيت الحكمة
13. عبد الوهاب، حسن حسني (1972): ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التّونسية، القسم 3، مكتبة المنار، تونس،
14. العريبي، علي (2000): محمد البشير صفر، مقالات في الإصلاح، تونس: مطبعة المغرب للنشر
15. غفيري، موسى (2020): الأنا والآخر في التاريخ المدرسي الرسمي في تونس زمن الاستعمار، تونس، مجمع لطرش للكتاب المختص
16. الكعاك، عثمان (1957): البربر، تونس، جبل المناور.

Disclaimer/Publisher's Note: The statements, opinions, and data contained in all publications are solely those of the individual author(s) and contributor(s) and not of **LJCAS** and/or the editor(s). **LJCAS** and/or the editor(s) disclaim responsibility for any injury to people or property resulting from any ideas, methods, instructions, or products referred to in the content.

Copyright: © 2025 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).